٧ ـ أومن بالانسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

[أكره أن أضايق القراء ببحث مطول فى مجلة ، ولكن رغبة الأستاذ الكبير الزيات ، وفيض الخاطر فى هذا الموضوع الخطير ، حببا إلى أن أعود إليه]

إنسان غير مفهوم — أوروبا المعمرة المدمرة — نكسة — خديعة ذهبت إلى جهنم ! — نغمات وترنيلات جديدة — تناقض بين حياة الأرواح وحياة الأجسام — من الطبيب ؟ — قانون طبيعى ينتقم لنفسه

الغربى إنسان غير مفهوم ! فقد كفر الأوربيون بالحياة فى هذه الحرب بعد أن جنُّوا بها جنوناً فى وقت السلم . وهم لا يذكرون السلم فى هذه الحرب كما لم يذكروا الحرب فى فترة السلم

لم يتخذوا من قانونى الحياة والموت حداً وسطاً يقيمون عليه حياتهم وما استخلفوا عليه من حياة الآخرين ، فيعيشوا على كفتى ميزان معتدلين آخذين حظاً صالحاً بعدل السلام ويعدل الحرب

هم فجروا فى فترة السلم : فتشهوا وكفروا وعبدوا الهوى واحتقروا الضعيف وشرهوا للمال وغصبوه من أفواه الآخرين بالحديد والنار ، وخانوا أمانة الاستخلاف على الأرض ، وتنازعوا على الطعام الكثير كما يتنازع الأطفال !

وهم فجروا فى هذه الحرب، فلم يرعوا حرمات الحياة الإنسانية التى قدستها الأجيال : فصبوا العذاب على الأطفال والنساء والمستضعفين والمرضى وسكان المعاهد والمعابد المسالمين ، وحرقوا الأقوات والأرزاق والمأوى ... فحياتهم لا تحتمل ولا تستحق العمل بعد هذه الحرب إذا أصروا على أن يلجأوا لحرب أخرى بهذه الكيفية النكراء التى تدمر ما عمروا وعمر الناس ...

من يصدق أن أوروبا البانية العالمة المعمرة المخترعة العابدة للحياة ، الساعية الجاهدة فى سبيل الكشف والمال والاختراع ، الباحثة المنقبة عن خبايا الأرض وركازها ، الرائدة الكاشفة عن مجاهلها ، المبشرة بالمثل العليا بين الأجناس المتخلفة ، القاضية على تجارة الرقيق ، الحاملة التجارات والمعلومات ، الواصلة بين أقطاب الأرض صلة اللاسلكى والراديو والتلفزيون ، المرسلة « المبشرين » لتحرير الناس من الوثنية ، الدارسة للأنواع والأجناس ... هى هذه المخربة المدمرة الباطشة بطش النمور والأسود، الفاسية على النساء والأطفال والضعفاء، المفتنة فى وسائل الآلام ، الهدامة للدور ، المحيلة عمار المدن إلى خراب القبور ؟ !

* * *

الأجسام العاجية الجميلة تذوب وتصهر وتسحق عظامها وجماجمها تحت أثقال الحديد والجلاميد ... !

الوجوه المشرقة البيضاء ذات العيون الزرقاء والشعور الذهبية ذهبت قرابين تأكلها النار باختيارها

مسكينة ! طافت فى جميع بقاع الأرض تجمع الذهب الأصفر والذهب الأسود والحديد ، ثم أوقدت على الجميع فى النار واحترقت معه !

جمعت فى أنانية وجشع واعتزاز واعتزام ... لا لتملأ البطون الفارغة ، وتكسو الأجسام العارية ، وتعين أبناء الحياة على نوائب الحياة ، ولكن لتملأ أفواه المدافع وبطون المقابر ... !

خلاصة الإنسانية العاملة المجاهدة المتاجرة المحاربة العالمة . تحترق الآن على مشهد من الزنوج والإسكيمو !

الحياة تتحطم بأيدى بنائيها ومقيمى صروحها العالية وجامعى مواد بنائها من لحومهم وعظامهم ودمائهم وذهبهم وحديدهم ونور عيونهم فى المعامل والمعاهد !

الغادة اللعوب الفاتنة ذات المساحيق والأصباغ والعطور والأزهار واللؤلؤ والديباج « والمونوكير » تتكشف عن العجوز الشوهاء الدرداء المريضة الرسحاء العجفاء ساكنة الكهوف والمغارات ، الضاربة على الدف لشن الغارات !

الأم العاقلة العالمة تصيبها جنة وجهالة فتأكل بنائها وبنيها !

لندن وبرلين يصب عليهما الخراب والدمار صباً فيباد ما فيهما من مراكز نمو الحياة وعلب أسرارها « وثقافتهم » أجنتها وولائدها ! ...

والإنسانية الجاهلة الغافلة المقيمة بالأكواخ فى القارة السوداء وأواسط التبت ترى هذه الإنسانية العالمة المدبرة الجميلة تشن الغارة على الحياة بالزلازل والبراكين والصواعق الصناعية ... فتحمد الله على الحياة فى الغابات مع الأسود والقرود التى لا تلتقم منها إلا أفراداً !

الحياة تصاب بنكسة حادة يا أطباء الحياة ... فهل من دواء لها فيما صنعتم من العقاقير والأقرباذين ؟!

* * *

كنا أوشكنا أن نعيد الدنيا عمثلة فى لندن وباريس وبرلين ، وننسى نهاية رحلتنا فى هذه الدنيا غرباء عابرى سبيل ، لا تملك الملك ولا البقاء ، وتخضع لقوانين الزوال والفناء ، ويدور الفلك بنا دورات حتمية تشب الطفل وتشيب الصغير وتفنى الكبير وتلقى بنا إلى العالم المجهول ...

وكنا أوشكنا أن نظن تلك الأجسام الأوربية القوية الجميلة الرقيقة الرشيقة الذكية هى الإنسان المقصود بالحياة . وأما من عداها « حيوانات بشرية » — كما تعبر المتارية — ومخلوقات تكميلية خادمة لها تعيش على هامشها وتسير فى خدمتها ، وقبيح اعتقادنا فى أنفسنا تبعاً لذلك حتى تركنا لها الأرض طوعاً وكرهاً وخلينا لها مكاننا من الدنيا ...

وكنا اعتقدنا أن عناوين النظم الأوربية ثابتة لا تتزلزل ، ونظمها البارعة عزيزة على أصحابها ، وأن الانسان الأوربى مقدس فى نفسه وأمه ، فلا تحطيم لدنياه ولا نسف لنظم حياته ولا تمثيل به ولا سحق ولا نثر لأشلائه ...

وكنا أوشكنا أن نرى العالم المادى الدقيق الذى صار التنويع فيه والتشكيل والتلوين والدقة والتركيب كأنه دنيا أخرى من مخلوقات الحديد والصلب والخشب وسائر المواد الجامدة منفصلة عن روح الحياة فى الإنسان فأخذنا نعيش بها عيشة آلية صخابة بدون وعى ووداعة وإحساس من الروح ويقظة للمصير المحتوم !

ولكن هذه الحرب أخلفت تلك الظنون الخاطئة ، وصححت أفهامنا الفاسدة ، وكشفت عن أبصارنا غطاء التمويه وسحر التخييل ، فإذا بنا نعود وإذا بالأوربيين أنفسهم يعودون معنا إلى المعانى الأزلية الخالدة التى نزعت من قلوب أنبيائنا واستنزلوها من السماء بالإخلاص والبكاء لرب الحياة الذى وضع الإنسان فيها موضعه بين الأهوال والألغاز والأسرار ...

وإذا المثل العليا تعود ذكراها إلى الألسنة والأقلام يرددها الساسة وممارسة المال ! ويخطبون فيها خطابة الأنبياء والمرسلين بين عباد الأوثان بالبيان الساحر والحجج الأخاذة ، والإذاعة العريضة الواسعة

وإذا الترتيلات بالحق والسلام والعدالة تنبعث من جميع بقاع الأرض وتنطلق بها حناجر الناس جميعاً ، وتزيد كل أمة فى طنبورها نغمة

وإذا بالنظم الأوربية الظالمة الجائرة المتحجرة تذوب وتتماع تحت حرارة أنفاس الدعاة إلى السلام والحق والعدالة ، وتحت نيران هذه الحرب التى انتقمت شر نقمة من طغيان السياسة والرأسمالية والدعوات الهدامة

وإذا بالروح الإنسانية الوديعة الرحيمة المؤمنة بالله وبالإنسانية تعود فى جو مخضب بالدماء ، مندى بالدموع ، مطرز بالآلام ، إلى القلوب المهجورة القاسية الكافرة ، كما يعود طير شارد تائه إلى عشه المهجور ، ومكان حنينه وأشواقه ، فيراه خرباً منثور الأعواد ، عبثت به الرياح ، وعشعشت فيه العناكب ... فما يزال يقسم عوداً إلى عود ، وورقة إلى ورقة ، ويرفرف عليه بجناحيه حتى يطرد عنه أنفاس السوء وأوساخ الحشرات ، ثم يعمره بالرحمة والحب والحنين ...

* * *

لقد بنى الغربيون حياتهم على مناعة الأجسام وحدها من أمراضها ، ولم يبحثوا عن وسائل مناعة الأرواح من آفاتها . فأخذوا الحياة من جانبها الضعيف وتركوا الجانب الآخر ، وقوانين الطبيعة لا ترحم من يخالفها ولا تحابيه ، بل تدافع عن وجودها وتهدم من يحاول هدمها

فمن يدع ثغرة فى بناء الحياة من غير سدها أوشك أن يدخل منها إلى البناء ما يأتى عليه من القواعد ، ويجعله خاوياً على عروشه

وكان جديراً بالإنسان الأوربى الذى يعرف حجم الميكروب الصغير وخطورة آثاره ، فيحترس منه ويقيم الأرصاد والجواسيس خشية اقتحامه عليه ثغرة من ثغرات جسمه ... أن يعرف أن للحياة الروحية جراثيمها الفتاكة فيجاهد لكفاحها وقتلها كما يفعل بأخواتها جراثيم الأجسام ، حتى تسلم جميع قواعد بناء الحياة من أسباب الانهيار

ولكنه لم يعرف بعد الجراثيم الروحية ، ولا يزال روحه يعيش فى عصر التطبيب بالخرافات ، كما كان يعيش فى عصر الخرافات فى طب الأجسام ...

ولا يزال يسخر بأطباء الأرواح وعلاجاتهم كما كان يسخر بأطباء الأجسام حين يفاجئونه بكشف جديد لمرض قديم

فإلى أن يؤمن بما يصنع له طب الأرواح ويعمل به سيظل شقياً بتلك الأمراض التي هي أشد فتكا من الطاعون والسل والجدري وغيرها من الأمراض التي تهدم الإنسان وحده ، ولا تهدم معه تاريخه ومبادئه ومبانيه وأمواله . . . فمن أعراض أمراض الروح تلك القنابل والصواعق والحرائق التي تترك المدن التي صبت فيها جداول المدنية والعلوم والتقت فيها الحضارات وثمار الجهود المشتركة خراباً ودماراً كأن لم تغن بالأمس

ولكن ينبغي له قبل ذلك أن يخرج من بين أطباء الأرواح أولئك الدجالين المشعوذين والأغبياء المحدودين الذين قد يقتلون النفوس بالعلاج الخاطئ ، أو يغلقونها دون رحمة الله أو يصيبونها بعاهات ، أو يعالجونها بالخرافات والشعوذة وأسباب الضلال ، كما فعل بأشياعهم الذين كانوا يندسون بين أطباء الأجسام من قبل . . . حتى يستقيم علاجه على أيدي الإخصائيين الذين خلقهم الله لقيادة النفوس بالسلوك والمعاملة والبيان الواضح والفكر المضيء المنير . . .

أولئك الأوصياء لا يلزم أن تكون منهم في الأمم كثرة . بل ينبغي أن يكونوا قلة ؛ حتى لا تصيبهم مصائب الزحام على الأرزاق والوظائف . . .

ويجب ألا يرتفعوا إلى المناصب بالوساطات والشفاعات و« الشهادات » بل بأنفسهم وما فيهم من خلق الوصاية الرشيدة والسياسة الحكيمة ، والقدرة على إدراك الداء في كل نفس ، ووصف العلاج

وينبغي أن يدقق في اختيارهم غاية التدقيق . وينبغي أن تكون وسائل العلاج هي ما صلح من مواريث القديم ، وأصلح الآراء في علم النفس الحديث . . . أي ينبغي أن يكون علم النفس هو أساس التربية الروحية والدعوة إليها كما صار علم وظائف الأعضاء وعلم الأغذية أساس الطب الجسدي الحديث

وعلم النفس أوشك أن يكون من الدقة والصحة بحيث يستطيع أن يضع الإنسان في المخابر والمسابير ويقيس كل ما فيه بأرقام لا تخطئ !

إن قوانين الروح قد غضبت وانتقمت لنفسها شر نقمة من الإنسان الذي لم يقم لها بعد وزناً . وإنه لجهل وسفه ألا يفطن الإنسان الأوربي بعد إلى أن يحمي نفسه من غضبها وانتقامها كما يحتمي من غضب قوانين صحة الأجسام

إنه يحتمي أن يمد يده في النار لئلا تحرق ، أو يلقي نفسه في الماء لئلا يغرق ، أو يقف في طريق قاطرة لئلا يسحق . . . ولكنه يرضى لنفسه أن يدخل فيسرق ، وأن يطمع فيكره ، وأن يستبد فيحارب ؛ وأن يخل موازين العدل فتفقد حياته بفساد حياة الآخرين ، وأن يترك الناس إخوانه جاهلين مرضى الأجسام والنفوس فيحرضوه ويشقوا حياته بشقائهم . . .

كلمة يجب أن تعلم وتكرر دائماً أمام الدولة وأمام الفرد وهي:

إن الدولة كائن عضوي واحد كالجسم الواحد ذي الروح الواحد . . . فإذا سمحت لشيء منه ولو كان ظفراً أو منبت شعرة أو خطرة نفس أن يدخله الفساد ، فسيلحق الجسم كله — وأنت خلية فيه — آثار ذلك الفساد وآلامه

فاحذر أن يمرض أخوك أو خادمك حتى لا تنتقل عدواه إليك . . . واشترك في إطفاء الحريق في بيت جارك قبل أن تمتد النار إلى دارك !

عبد المنعم خلوف

الى الأستاذ أحمد السنوسي

حضرة الفاضل الأستاذ أحمد السنوسي الاخصائي في الأبحاث النفسانية

بعد التحية وواجب الاحترام : يسرني أن أتقدم بهذا معبراً لسيادتكم عن عظيم تشكراتي وامتناني مع التقدير العظيم لشخصكم المحبوب ، وذلك لما أسديتموه إلي من أياد بيضاء وخدمات لا تقدر بثمن ، فلقد كان يا سيدي الأستاذ لعلاجكم لي أعظم الأثر في نفسي ، ذلك الذي جعلني أبث من جديد إلى حياة سعيدة هانئة وشعور قوي بأن لي صفة وقيمة في الحياة بعد أن كنت أتخبط في ظلمات الآلام الوهمية والتخيلات الكاذبة وعدم الثقة بالنفس وتخوف في الأقدام على أي عمل من أعمال المعيشة تلك التي بسببها أدى وجودي في الحياة عبئ ، لأن حالتي النفسية السابقة كنت أشعر بأنها مملوءة بالتعاسة وعدم الحظ ، كل هذه الأوصاف التي ذكرتها هي أقل ما أتذكره الآن مما كنت فيه

فعليه أجد لزاما علي أن أتقدم برفع هذا لسيادتكم إعترافا مني بفضل علمكم النافع وخدماتكم الجليلة ، كما وأني أرى من الواجب علي أن أسجل لسيادتكم (كلمة حق) على صفحات الرسالة كنصيحة مني ليطلعوا عليها الراغبين من الناس الذين يشعرون كما كنت أشعر أنا من الآلام النفسانية

وختاماً لا يسعني إلا أن أسأل الله أن يكثر من أمثالكم .

وتفضلوا بقبول عظيم إجلال وفائق إحترامي

المخلص
مصطفى أحمد شبيه
مدرس لاسلكي سابقا

عنوان الأستاذ أحمد السنوسي
٣٣ شارع الملكة نريمة تليفون ٤٩٤٧٢